طاهر عبدالكريم

المهمة الوحيدة الشريفة

التسلح باقصى درجات الحذر واليقظة ، والتعرف الدقيق على الاصدقاء والاعداء شرطان من أهم شروط النصر في المعارك المصيرية .

ومعركة الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية هي معركة مصيرية بكل معنى الكلمة بالنسبة لمستقبل الوطن العربي كله، ولانها كذلك فانها ذلك النوع من المعارك الذي يكشف بوضوح حقيقة مختلف القوى والمواقف ، ومن هنا ايضا فان العديد من القوى والاوساط العربية المعادية بحكم مصالحها وارتباطاتها وسياساتها لمضمون معركة الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية تناور باكثر من اسلوب لكي تخفي حقيقة موقفها ، بعضها تورط في موقف يائسفرفع العصا وراح يضرب على رأس حركة المقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية ويصرخ في وجه معارضيه بانه انما يضرب شعبنا اللبناني والفلسطيني دفاعا عن مصالح شعبنا اللبناني والفلسطيني ، البعض الاخر لم يكلف نفسه عناء رفع يده لمنع الضربات المتهاوية على رأس شعبنا اللبناني والفلسطيني ، أو كسر العصا التي تضرب ، وانما فقط راح يرفع عقيرته محتجا على الضاربين ، وفي مقابل هذا الاحتجاج يطلب من حركة المقاومة الفلسطينية ان تسلم له قيادها حتى يصحبها معه في مسيرته الى احضان الامبريالية الاميركية ، وحتى تصبح معه طرفا في الوفاق الاميركي ـ الصهيوني ـ اليميني العربي.. وبطبيعة الحال فان لذلك شروطا يعلنها هذا البعض في سفور: ان تسارع منظمة التحرير (بتطهير) نفسها من الداخل وان تقضي على ما اسماه هؤلاء « الحماة » بالعمالة ومحاولات التفجير من الداخل والتي تزايدت بشكل خطير في هذه الاونة . أي ان تتوقف حركة المقاومة عن القتال ضد الذين يريدون ذبحها من الانعزاليين وحكام دمشق ، وان تتفرغ لقتال داخلي حتى تقضي على تلك القوىوالاتجاهات في داخل حركة المقاومة التى لا تتفق وامزجة فرسان اليمين العربي واصدقائهم في واشنطن وتل ابيب .

* * *

ان معركة الحركة الوطنية اللبنانية وحركة المقاومة الفلسطينية هي معركة ضد موجة من الطائفية الفاشية يراد لها ان تنجح في لبنان حتى تمتد الى الوطن العربي فتمزقه وتصفي قدرته على التصدي لمخطط الهيمنة الامبريالية الاميركية .. والذين فتحوا ابوابا واسعة لعودة النفوذ الامبريالي الاميركي الى المنطقة لا يمكن بأي حال أن يكونوا « حماة » لحركة المقاومة الفلسطينية ولا اصدقاء للنضال الوطني الديمقراطي اللبناني في نضالها ضد الهجمة الطائفية العنصرية .

والمعركة في لبنان هي معركة ضد تصفية القضية الفلسطينية وضد تكريس الاغتصاب الصهيوني لفلسطين .. والذين يطالبون منظمة التحرير بالتخلي عن نضالها من اجل تحرير فلسطين ، وبالتنازل عن مسؤوليتها عن الاراضي الفلسطينية المحتلة للنظام الاردني حتى يتولى هو عقد صفقة مع المحتلين .. واولئك الذين يعلنون استعدادهم لانهاء حالة الحرب رسميا مع العدو وهو لا يزال يحتل اراضيهم .. اولئك لا يمكن ابدا ان يكونوا « حماة » لحركة المقاومة الفلسطينية ولا دعاة لاسترداد حقوق الشعب الفلسطيني .

والمعركة في لبنان هي في التحليل النهائي معركة ضد التسوية الاميركية الصهيونية التي جوهرها تصفية القوى الوطنية والتقدمية العربية المناهضة للامبريالية والصهيونية والرجعية ، والتي تستهدف فرض الهيمنة الثلاثية : الاميركية ـ الصهيونية ـ اليمينية العربيةعلى الوطن العربي بأسره .

بين هذين الموقفين : الضاربون مدعين انهم يضربون الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية دفاعا عن الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية، واولئك الذين ينتهزون الفرصة ليغسلوا أيديهم من المسؤولية عن ذلك الذي يحدث في لبنان ، وفي نفس الوقتلايقدمون سوى الكلمات مطالبين في مقابلها بثمن باهظ .. ما مدى قدرة الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية على الصمود ؟

عشية اعلان ما سمي بالمبادرة السورية في الثاني والعشرين من كانون الثاني الماضي كانت القوات المشتركة قد حققت تفوقا عسكريا هاما حينما استولت على معاقل الانعزاليين في منطقة الفنادق ، وطردتهم من مواقعهم في الدامور والجية والسعديات .

وحينما اندلعت حرب الجبل في اذار الماضي بدا واضحا ان القوات المشتركة الوطنية اللبنانية والفلسطينية قادرة على تمزيق اوصال الدولة الانعزالية التي كان يجري رسم حدودها .

وجاء التدخل العسكري السوري المكشوف ـ فقد كان هناك تدخل عسكري سوري سابقا تحت ستار منظمة الصاعقة ـ في بداية حزيران الماضي ليضع القوات المشتركة الوطنية اللبنانية والفلسطينية في مواجهة : حوالي ثلاثين الف جندي سوري ومئات من الدبابات والاليات والمدفعية وقاذفات للصواريخ ، وحوالي عشرة الاف يشكلون القوة العسكرية الضاربة لحزب الكتائب الانعزالي ، وخمسة الاف يشكلون ما تبقى من ميليشيا النمور التابعة لكميل شمعون ، ومثلهم من المسلحين التابعين لما يسمى بحراس الارز ، وحوالي عشرة الاف جندي من الجيش اللبناني تمردوا خلف قائدهم الانعزالي العقيد انطوان بركات . أي ما مجموعه ٦٠ الف مقاتل خطوط امداداتهم بالعتاد والذخيرة والمؤن مفتوحة من سورية والكيان الصهيوني ومن مخازن الجيش الاميركي في المانيا الغربية .

ومع ذلك : لم تستطع دبابات واليات النظام السوري انتتقدم بعد صوفر على اثر المذبحة التي تعرضت لها هذه الدبابات والاليات حينما حاولت التقدم نحو بحمدون . وليس صحيحا ما قاله حافظ الاسد في خطابه يوم ٢٠ من تموز انه اصدر اوامره بعدم التقدم نحو بيروت . فكل المراسلين الذين زاروا المنطقة كتبوا لصحفهم او لوكالات الانباء والاذاعات التى يراسلونها يصفون الدبابات والاليات التابعة لنظام دمشق وهى محترقة او معطوبة على الطريق بين صوفر وبحمدون .

وكانت هناك انباء عن ضباط سوريين في قطاع صوفررفضوا اوامر بالتحرك بعد هذه المذبحة .

وكانت هناك المحاولات المتعددة لاحتلال صيدا بواسطة لواء مدرع سوري كامل . وتوقفت هذه المحاولات بعد ان تحطمت على أبواب صيدا حوالي ثلاثين دبابة والية مدرعة واسر معظم افراد طواقمها جنودا وضباطا .

لقد كانت لتلك الهزيمة ردود فعل سيئة للغاية سواء في اوساط الجيش العربي السوري ، أو في اوساط المواطنين السوريين ،مما اضطر حافظ اسد ان يختلق قصة مضحكة لتفسير هذه الهزيمة لا يمكن لاكثر العقول سذاجة ان يقبلها ، فقد زعم في خطابه الاخير ان مفرزة انفصلت عن ذلك اللواء المدرع ودخلت صيدا فخرج اهلها رجالا ونساء واطفالا يستقبلون تلك المفرزة بالغناء والورود ، ونزل ضباط وجنود هذه المفرزة لمعانقة الجماهير التي احتشدت لاستقبالهم وهنا انطلق ما سماه رصاص الغدر على المفرزة وجنودها وضباطها !!

لقد رأى المراسلون العرب والاجانب موقع المعركة على الطبيعة وشاهدوا اثار المعركة في العديد من اليات اللواء المدرع الغازي ، وشرح الرائد احمد بوتاري قائد جيش لبنان العربي في منطقة الجنوب لهؤلاء المراسلين خطة الكمين الذي اعده للواء السوري ، وتحدث بعض الاسرى من الجنود السوريين للمراسلين ولم يذكروا ابدا اي شيء عن الاهازيج والورود التي تحدث عنها حافظ اسد .

اننا بطبيعة الحال لا نقلل من كفاءة افراد الجيش العربي السوري ، ولكننا بالتأكيد ندرك مدى التمزق الذي يعانيه الضابط والجندي في الجيش العربي السوري حينما تصدر اليه الاوامر بالتحرك ضد قوات عربية وطنية بدلا من التحرك ضد القوات الصهيونية التي تحتل الجولان. وندرك مدى الازمة النفسية والذهنية التي يعانيها هؤلاء الضباط والجنود وهم يواجهون الاختيار الصعب: التحرك الكريه ضد اشقائهم او المحاكمة الميدانية والاعدام.

* * *

ولكن اسطورة الصمود الحقيقية هي تلك التي يصنعها مخيم تل الزعتر .. فهذا المخيم الذي يعتبر من اكبر المخيمات الفلسطينية (٤٠ ألفا) ، هو في نفس الوقت اكثرها تماسة وفقرا واكثرها حرمانا من أبسط الخدمات ومن ادنى مقومات الحياة الانسانية .

فحينما بدأ النزوح من الجليل بعد اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨ اختارت السلطات اللبنانية موقع مخيم تل الزعتر بعناية : من ناحية ان يكون في منطقة المصانع حتى يكون مستودعا هائلا لايد عاملة فلسطينية رخيصة لاتتمتع بأية حماية او ضمانات قانونية (كان اجر العامل الفلسطيني في تل الزعتر ٥ ليرات يوميا في الحد الاقصى، واجر العاملة ٣ ليرات في الحد الاقصى ليوم عمل يصل الى عشر ساعات) ، وبحيث يكون المخيم في نفس الوقت في موقع استراتيجي يسهل على قوات السلطة اللبنانية ان تسيطر عليه في حال تمرد سكانه على صنوف القهر المفروضة عليهم .

فالمخيم يقع على سفح مكشوف لمرتفعات تكاد تطبق عليه في شبه دائرة وفي قمة هذه المرتفعات مواقع سكنية للبرجوازية الانعزالية ، وهي المواقع التي تتمركز فيها حاليا القوات الانعزالية التي تحاصر المخيم وتشن عليه الهجمات المتكررة يوميا .

ومنذ سنوات كانت قيادة المقاومة تعتبر مخيم تل الزعتر ساقطا من الناحية العسكرية ، اولا بسبب موقعه داخل المناطق الانعزالية حيث يسهل حصاره ، وثانيا لموقعه في أسفل المرتفعات دون اية عوامل طبيعية يمكن أن يتحصن فيها المدافعون عن المخيم ..

رغم ذلك، ورغم ان هذا المخيم يتعرض لحصار تمويني منذ اكثر من ثمانية اشهر ، ويتعرض للحصار العسكري وللقصف المكثف من جانب مدفعية الانعزاليين ومدفعية حكام دمشق ، فانه استطاع ان يحطم اكثر من ستين هجوما في شهر واحد ، بمعدل هجومين كل يوم ، وسجل المدافعون عنه بذلك اسطورة في الصمود تستحق أعمق انحناءات الاجلال والاكبار .. وجعلوا من هذا المخيم آية فذة ستبقى خالدة في تاريخ الحرب الشعبية على النطاقين العربي والعالمي .

وتبقى الدلالة السياسية لصمود مقاتلي تل الزعتر ، وهي ان الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية لديهما القدرة الفعلية على الانتصار وعلى خلق لبنان جديد وطني ديمقراطي وعلى اقامة دولة نضالية تحررية تمرست في حرب وطنية وشعبية قاسية على خطوط المواجهة مع العدو الصهيوني لاول مرة .. وهذا بالفعل ما يفزع العدو الصهيوني ، ويفزع الاوساط الساعية الى التصالح والتعايش معه .. وهذا هو الدافع الحقيقي للتدخل العسكري السوري في لبنان ، وهو الدافع الحقيقي للدعم المعلن والمستتر الذي تقدمه بعض الانظمة العربية للتدخل السوري وللقوى الانعزالية.

★ ● ★

ولان المعركة في لبنان من جانب المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية هي في جوهرها معركة في خط امامي لحماية الوطن العربي من الهيمنة الاميركية ـ الصهيونية ـ اليمينية العربية ، فان الذين اخذوا على عاتقهم مهمة قمعها انما اختاروا في الواقع لانفسهم مهمة غير شريفة وغيرمشرفة ، مهمة لا تضعهم وحسب في صفوف اعداء القضية الفلسطينية والقوى الوطنية في لبنان ، ولكنها وبنفس القدر تضعهم في صفوف اعداء شعوبهم .

الذين تصدوا لقمع هذه المعركة بالحديد والنار في دمشق بدأوا يواجهون المتاعب الداخلية ، لذلك جاء خطاب حافظ اسد رئيس نظام دمشق في العشرين من تموز محاولة بائسة لتبرير نيرانه التي يصبها على مخيمات الشعب الفلسطيني وعلى المواقع الوطنية اللبنانية .

انه في مطلع خطابه يعترف بأن هناك موقفا شعبيا رافضا لتدخله في لبنان ، وان كان يحاول ان يعطي ذلك تفسيرا اخر فيقول : « هناك من يأتي من الخارج ليتسلل الى صفوفنا بالداخل يقولون ما لنا ولاحداث لبنان » .

هذا هو دائما منطق الحكام الذين يتخذون قرارات ضد ارادة شعوبهم ، وحينما يواجهون بمعارضة شعبية لقراراتهم يصيحون بان هذا من فعل متسللين من الخارج .

ولو كانت المسألة مسألة متسللين من الخارج لما اضطر حافظ أسد ان يحشو خطابه بعشرات من الاكاذيب الصارخة محاولا بها تبرير موقفه ، ولكن هذه الاكاذيب اليائسة دليل على ان احدا من ابناء الشعب العربي في سورية لم يعد يقبل ان تستمر هذه المهزلة.

الا انه لا ينبغي ان نتوقع ان حافظ اسد سيسارع الى سحب قواته من لبنان لمجرد انه يجد نفسه في هذا الموقف التعيس سياسيا .

الذين يذكرون التورط الاميركي في فيتنام يذكرون انه كلما كانت العزلة محليا ودوليا تضيق الخناق على السياسات الاميركية في فيتنام كانت الولايات المتحدة تصعد عدوانها برا وبحرا وجوا في محاولة لانهاء الحرب لصالحها بأسرع ما يمكن، ولكنها اضطرت فقط للانسحاب من فيتنام حينما بدأت تعاني الهزيمة الشاملة على ارض المعركة .

ان اركان نظام دمشق على ما يبدو لم يعوا من الدرس الاميركي في فيتنام الا جانبا واحدا .. ذلك هو تصعيد التدخل والعدوان على أمل انهاء الحرب لصالحهم بسرعة كلما تصاعدت المعارضة الداخلية والخارجية لعدوانهم .

ذلك لا يمنع انهم سيلجأون في نفس الوقت لمختلف انواع المناورات والتكتيكات المخادعة على امل تخدير المعارضة وايقاع الاضطراب في صفوف القوات المشتركة .

من هنا كانت ضرورة الحذر ضد اية اوهام .. فالنظام السوري لن يسحب قواته من لبنان الا اذا اجبرته الهزيمة على ذلك ..والحاق الهزيمة بقوات نظام دمشق المعتدية في لبنان هو المهمة الوحيدة الشريفة والمشرفة التي يجب ان تتجمع من اجل انجازها جهود كل المعنيين بالتصدي للموجة الطائفية الانعزالية ، والمعنيين بدحر الهجمة الامبريالية ـ الصهيونية ـ اليمينية العربية ، والمناضلين من اجل انتصار الثورة الوطنية الديمقراطية في الوطن العربي .

« الثورة » البغدادية
١١ آب ١٩٧٦